

(٤)

أديبات وجوائز

□ هيرتا مولر

(نوبل ٢٠٠٩)

□ توني موريسون

(نوبل ١٩٩٢)

□ فاسوفا شمبروكسا

(نوبل ١٩٩٦)

هيرتا مولر



ما

أغرب هذه الجائزة فى اختياراتها !
ونحن لا نقلل من أهمية الكاتبة
«هيرتا مولر» الفائزة عام ٢٠٠٩ بجائزة نوبل،
ولكنها بلا شك ليست هى الأكثر أهمية،
حسب قائمة المائة كاتب النوبليين الذين
نشرت أسماؤهم قبل أيام من إعلان الجائزة.
امتلأت نشرات الأخبار - قبيل الإعلان عن

الجائزة - بأسماء عشرة أدباء فقط، من بين هؤلاء الستين، باعتبار
أن من يتصدرون القائمة هم الأكثر أهمية، أو لديهم الفرص الأفضل
للفوز، وهذه الأسماء هى الروائى الإسرائيلى «عاموس ماوز»، والأديبة
والمخرجة الجزائرية «آسيا جبار»، ثم الروائى الأسبانى صديق الثقافة
العربية «خوان جويتسولو»، والروائية الأمريكية «جويس كارول
أوتس» - ثم الشاعر السورى «أدونيس»، والروائى الإيطالى «أنطونيو
تابوكى»، والروائى الإيطالى «كلوديو ماجريس»، والروائى اليابانى
«هاروكى موراكامى»، ثم الروائى الأمريكى المنعزل، لقليل الإنتاج
«توماس بينشون»، والروائى السويدى «توماس ترانستروم»..

والحقيقة أن قائمة المائة، امتلأت بالغرائب، غرابة الجائزة نفسها واختياراتها غير المبررة، فهناك أدباء بأعينهم، كانوا على قمة القائمة في سنوات سابقة، صاروا الآن في ذيلها، دون سبب، وكان الكاتب يفقد قيمته، عبر السنين، لو أحملته الجائزة في ترشيحاتها، منهم على سبيل المثال البيروفي ماريو بارجاس يوسا (١٦) الذي حصل عليها مؤخراً، والتشيكي ميلان كونديرا (٣٤)، والمرحى والروائى النمساوى بيتر هانكه (١٩)، والكندرية مارجريت آتوود (٢٣)، والبرازيلي كارلوس فونتس (٢٩)، والإفريقى شينو أشيبا (٢٩)، والإيطالى المبدع أمبر تو ايكو، والفرنسيان ميشيل تورنييه (٥٥)، وباتريك موديانو (٥٦)، ثم النمساوى بول أوستير..

وإذا كانت الجائزة قد عادت بعد خمس سنوات إلى اللغة الألمانية مرة أخرى، فإن من بين هذه الأسماء من يستحق عن جدارة، وهى أسماء مقروءة فى لغات عديدة، منها اللغة العربية مثل بيتر هاندكه، وبول أوستير، لكن ما حدث فى عام ٢٠٠٤، كان مؤشراً سيئاً بالفعل اختيار الفريدة يلينيك، حيث طلع علينا واحد من أعضاء لجنة اختيار الفائزين، بعد فوزها بعدة أشهر واعترف أن اختيار مؤلفه «عازفة البيانو» كان خطأ بشعاً.. مما يعنى أن اختيارات الجائزة ليس أبداً هو الأصح، أو الأفضل..

وإذا كانت الجائزة قد منحت إلى كاتبة تمثل الأدب المكتوب بالألمانية، للمرة الثانية خلال خمس سنوات، بصرف النظر عن ثقافتها، كى تكون هيرتا مولر هى ثالث امرأة تفوز بها خلال هذه

السنوات الخمس، فإن هناك كاتبة ألمانية أكثر أهمية من مولر بمراحل طويلة، هي كريستا فولف، وهي أيضًا مقروءة في اللغة العربية.. إذا أردت أن تقيس أهمية كاتب، فعليك أن تتصفح مكانة كتبه في المكتبات الفرنسية، لكن بالنظر إلى اسم مولر في هذه المكتبات، فسوف تكتشف إلى أي حد هي مجهولة، وغير مقروءة في هذه اللغة، والغريب أنه بتصفح مواقع أهم مجلات عروض الكتب الفرنسية مثل: «لير»، «ماجزان ليتيرير»، فسوف نجد أن الاسم «غير» موجود بالمرّة.. وبالاتصال ببعض أساتذة الأدب الألماني، الذين عاشوا طويلاً في ألمانيا، ووسط هذه الثقافة، أشاروا إلى أنها كاتبة بدرجة جيد، أي إنها ليست في امتياز تايوكي، وكارول أوتس، وجويستولو، ثم كونديرا، ويوسا، على الأقل. ويبدو أن هذا العقد قد شهد أسماء أقل أهمية فازت بالجائزة، منها أميرى كيرتش، وبعض الأسماء الأخرى.

والغريب أن الإعلان عن فوزها بالجائزة، قد اعتبرها شاعرة في المقام الأول، على رغم أنها روائية غزيرة الإنتاج..

تمثل هيرتا مولر ثقافة الأقليات التي تناثرت في أمم عديدة، حسب التغير الحاد في سياسات الدول الأوروبية، فهي تنتمي إلى أقلية ألمانية عاشت في غرب رومانيا، حيث ولدت في ١٧ أغسطس عام ١٩٥٣، في ننشيفورو، بقرية تيميس، أي إنها مولودة رومانية بثقافة وهوية ألمانية، أبوها مزارع من جنس يسمى السوابيان، خدم في قوات الصاعقة، أو البوليس السرى في الجيوش النازية، أما أمها،

فتبعاً لهويتها، فقد تم نفيها في معسكر ألمانى فى الاتحاد السوفيتى عقب هزيمة ألمانيا..

درست «هيرتا» الأدب الألمانى، والأدب الرومانى فى جامعة تيميساوا، وفى عام ١٩٧٦، بدأت العمل كمترجمة فى إحدى الشركات الهندسية، لكن ما لبثت أن تم طردها بعد ثلاث سنوات، لرفضها التعاون مع قوات العسكرتارية، وهى ما يعرف بالشرطة السرية للنظام الشيوعى. عاشت حياتها تعمل فى مجال التدريس فى الحضانة، وأيضاً فى الدروس الخصوصية فى اللغة الألمانية، كتبت رواياتها أحياناً باللغة الرومانية، لكنها فى الأغلب مكتوبة باللغة الألمانية.

تعرضت مجموعتها القصصية الأولى لمقص الرقيب، ونشرت فى بوخارست منقوصة، لكنها صدرت كاملة بعد عامين فى ألمانيا، وفى العام نفسه نشرت مجموعة قصصية ثانية باسم «تأنجو الضغوط»، ويقال إن اسم الكتاب الأصلى هو ١٩٨٢، كما أن لها اسماً ثالثاً باللغة الرومانية هو «الأراضى المنخفضة».

سرعان ما تم التنبيه إلى أهميتها، وفى هذه الأعمال وصفت الكاتبة أسلوب الحياة فى قرية ألمانية صغيرة، تتبع الإدارة الرومانية، يسيطر عليها الفساد والتعصب والقهر الذى عاشت فيه، ولا شك أن مثل هذه الشفافية كانت ضد هوى نظام الديكتاتور تشاورشيسكو، لذلك هاجمها نقاد الصحافة القومية فى رومانيا، بينما قوبلت باستحسان ملحوظ فى الأوساط الناطقة باللغة الألمانية خارج بلادها.

وكما أشرنا ، فقد تعرضت هذه الأعمال الأولى للمنع داخل بلادها ، وفى عام ١٩٨٧ ، كانت قد نشرت مجموعتين قصصيتين ، وروايتين هما : «برلين» عام ١٩٨٦ و«قبل فبراير» عام ١٩٨٧ ، وقررت أن تهجر إلى ألمانيا الغربية مع زوجها الروائى ريتشارد فاجنر ، وصحبت معها أصول أعمالها الكاملة ، كى تعيد نشرها فى برلين..

لم تختار هيرتا بيللر الحياة فى النظام الشيوعى ، أى إنها لم تذهب إلى برلين الشرقية ، التى سرعان ما شهدت انهيار الجدار ، وتتابع أعمالها الروائية ، وهى على التوالى حسب ترجمتها عن الإنجليزية والفرنسية والألمانية : «السفر على قدم واحدة» عام ١٩٨٩ ، «الشیطان منعكساً فى المرأة» عام ١٩٩١ ، و «الثعلب هو الصياد» ، ثم «البطاطس الساخنة هى سرير دافئ» عام ١٩٩٢ ، و «وصل كأنه لم يصل» عام ١٩٩٤ ، و «الجوع والحرير» (مقالات) عام ١٩٩٥ ، و «أرض البرقوق الأخضر» عام ١٩٩٦ ، و «فى الفخ» عام ١٩٩٦ ، و «المشهد الأجنبى» عام ١٩٩٩ ، و «سيدة تعيش فى شعر كنوت» عام ٢٠٠٠ ، و «البيت الذى يتكلم هناك» عام ٢٠٠١ ، و «الملك يركع ويقتل» عام ٢٠٠٣ ، ثم «الرجال الشاحبون وفناجين القهوة» عام ٢٠٠٥ ، وأخيراً «أرجوحة الجهاز التنفسى» عام ٢٠٠٩ .

وفى مقابل هذا العدد الكبير ، نسبياً ، من الروايات ، فإن قائمة الجوائز الألمانية التى حصلت عليها ، وأيضاً التكريمات ، أيضاً طويلة ، فإلى جوار سفرها للعمل كأستاذ زائر فى جامعات عديدة ، وبالإضافة إلى ترجمة بعض هذه الروايات إلى اللغات السويدية والأسبانية

والإنجليزية والفرنسية، فإن أول جائزة أدبية حصلت عليها كانت في بلادها، حتى قبل أن تبدأ مسيرتها الأدبية؛ ففي عام ١٩٨١ حصلت على جائزة «تيم سوان» الأدبية، وفي عام ١٩٨٤ حصلت على جائزة الواجهة الأدبية، وبعد ذلك بعام حصلت على جائزتي «رويس» الأدبية، والجائزة الألمانية الأدبية التشجيعية، وهي كلها جوائز ألمانية، وليست رومانية..

وبمجرد أن وصلت مولر مع زوجها إلى ألمانيا، حصلت على جائزة «ريكاردا هوش» عام ١٩٨٧، وتوالى الجوائز داخل ألمانيا، بعضها منحت لها وحدها، مثل جائزة النقد الأدبي عام ١٩٩٣، وجائزة «كلایست» عام ١٩٩٤، وجائزة «أريستو» عام ١٩٩٥، وجائزة «فرانكفورت» عام ١٩٩٦، وجائزة «جراز» عام ١٩٩٧، ثم جائزة «فرانتز كافكا» عام ١٩٩٨، وجائزة «برلين» الأدبية عام ٢٠٠٥، ثم جائزة «فورت» للأدب الأوربي عام ٢٠٠٦، أما الجوائز التي حصلت عليها بالمشاركة مع آخرين فهما: جائزة «اللغة الألمانية» عام ١٩٨٩، وجائزة «يوسف برتشباخ» عام ٢٠٠٣..

لو أردنا البحث عن الكاتبة، ومكانتها في منتصف الثمانينيات، فإننا لن نجد لها أي ذكر كشاعرة في الكتاب الذي أصدره «أندرياس كليب» عام ١٩٨٨، تحت عنوان «الشعراء الألمان المعاصرون» - انظر عرض الكتاب في العدد ١٧٩ من مجلة «الفصل» - وحسب المقال الذي نشرته مجلة «أدب وفن» الصادرة باللغة العربية عن الثقافة الألمانية،

فإنه ورد ذكر «هيرتا موللر» فى نهاية مقال منشور فى عام ٢٠٠٠ حول الأدب النسائى المكتوب بالألمانية، حيث لم يرد أى ذكر للكاتبة باعتبارها شاعرة، ولكن قيل إنها «تعيد التفكير فى رواياتها فيما عانتة من قهر أثناء حكم تشاوشيسكو الدكتاتورى، فتسود أعمالها هالة مخيفة من العتمة، والغربة، والبرودة، وتجمع فى كتاباتها، على نحو اقترانى، جزئيات من الواقع إلى شذرات من الذاكرة، وملاحظات وصورًا من الأحلام تتخذ أحيانًا مساحا سرياليًا، وتصوغ ذلك كله فى لغة جريئة فى بنائها النحوى قوية فى صورها، وقد ميز هذا روايات هيرتا موللر من بين عدد كبير من الأعمال النثرية، والتى تواجه فيها الآلام الذاتية بالحياة اليومية العادية من خلال نظرة نرجسية داخلية. ويعظم فيها، من خلال المشاعر الجياشة أشد تعظيم، جو الخسارة والضياع الذى هو من محيزات سنوات التسعينيات..

استقت «هيرتا موللر» الكثير من رواياتها، من مسيرتها الذاتية. ففى روايتها «أرجوحة الجهاز النفسى» روت ما حدث لأمها فى المعسكرات السوفيتية. حيث تم طرد الكثير من الرومان الناطقين باللغة الألمانية إلى الاتحاد السوفيتى - كما أشرنا - ومن بينهم كانت أمها التى عاشت قبل أن تتزوج فى هذه المعسكرات التى أقيمت فى أوكرانيا الحالية لقد عانى أبناء هذه الفئة ذوو الأصول «الصواب» الذين هاجر. أجدادهم من ألمانيا فى القرن الثامن عشر، ويصل عددهم الآن فى رومانيا إلى ربع مليون نسمة، فإذا كان الألمان قد أقاموا معسكرات اليهود،

فإن الألمان أنفسهم صاروا محبوسين طوال خمس سنوات، بعد هزيمتهم في المعسكرات السوفيتية، ومن بينهم أمها الصوابية.

روت الكاتبة ما حدث لأبها في هذه السنوات، حيث أشارت إلى أنها عاشت الفاشية والظلم بأشكال مختلفة، وفي مجموعتها «الضغوط» تحدثت عن معاناة أبيها، الذي أجبر على العمل في خدمة الساعة الألمانية، في رومانيا. وبعد الحرب، أصاب الرجل حالة من الصمت، مما دفع ابنته أن تتساءل دومًا: هل كان أبى كاذبًا، إنهم يستغلون صمته دومًا كي يكتبوا ما يشاءون.. لقد مات الأب دون أن يتراجع أو يتوب عما فعل. وقد وصفت الكاتبة في كتابها الأول موت الأب، ووصفت من وجهة نظر طفلة- الحياة المرعبة التي عاشها القرويون في قريتها «بانات»، الذين كانوا يفخرون دومًا بأصولهم. لذا حصلت الكاتبة على العديد من الجوائز من ألمانيا الاتحادية، وليس بالطبع من رومانيا، التي قوبل فيها فوز هيرتا مولر بالاستهجان..

أما روايتها «الرجل تدرج كبير على الأرض»، لتعبير «تدرج» باللغة الألمانية يعنى الكبرياء، والشموخ، لكنه في رومانيا يعنى العكس، فهو نوع من الطير الهارب الذي لا يعرف كيف يسرق، ويختبئ بين الأوراق الكثيفة. أما بالعربية فهو نوع من الطيور الصغيرة كالعصافير.

إنها تروى قصة رجل يسمى «فينوش»، وأسرته، وانتمائه إلى عالم يتلاشى، ينتظر تصريح مرور منذ مدة طويلة، فهو مثل أبناء عشيرته، ممنوع عليهم الانتقال، كما أنهم يعانون من نقص الشرطة السرية،

لحيواتهم، ويعانون من الإذلال والخوف، فى ظل كافة الأنظمة، فهم قبل الحرب، أجانِب، وفى الحرب هم منبوذون، وبعد الحرب يقعون تحت طائلة أحكام الديكتاتور.

لا شك أن الأعمال الأولى للكاتبة، هى التى تم التركيز أكثر عليها الآن، بعد فوزها بجائزة نوبل، حيث تثبت الكاتبة من جديد أنها قد وقفت ضد النظام الشيوعى الأسبق، وهى ظاهرة معروفة فى الإبداع الذى يحصل على جوائز.

تبدأ رواية «الموعد» للكاتبة، بترام يقل امرأة فى الثلاثينيات من عمرها، سوف تذهب إلى المحقق الذى ينتمى إلى البوليس السرى الشيوعى المعروف باسم عسكريتارية، وعندما تلتقى بالمأجور أليو، فإننا نعرف أنها ليست المرة الأولى التى جاءت للاستجواب..

تصف أجواء الرعب التى عاشها الناس فى رومانيا طوال نصف قرن من الزمان، هذه المرأة بلا اسم، ترتدى زى عاملات المصانع، والرواية تقارن بين الترام البطيء المزدهم بالركاب وبين مسيرتها فى حياتها، تتحدث عن الابن «أليو»، الذى اكتسب سمات أبيه، فهو أيضاً شخص ملئ بالقسوة، سرق أموال أجداده فى القرية، وتم القبض عليه من الشرطة العادية..

من بين أسباب الرعب فى تلك الفترة، أن الجميع يمكنهم أن يبلغوا عن سلوك الآخرين إلى السلطات، ومن بين هؤلاء، الجيران، وساعى البريد.

وتروى المرأة عن الرجال فى حياتها، فقد تم استدعاء زوجها إلى الخدمة العسكرية، وحاول حووها أن يغويها، وعندما صدته، راح يضغط عليها، وأن يذلها. وهو يقول لها: «أنت تستخدمين عقلك لمساعدة أولادك. وهذا العقل هو سبب الألم».

تروى المرأة أن القوة المطلقة فاسدة، وتعترف أنها شبعت جنسياً مع إحدى نساء السوء وأنها بذلت أقصى ما لديها من أجل الاحتفاظ بإنسانيتها، كما حاولت الكشف عما عاناه الآخرون لمجرد أنهم قالوا كلماتهم، لذا، فهي تذهب إلى أقصى الحدود، لتشاهد كيف تم قتل أحد معارفها رمياً بالرصاص. وعندما تعود مرة أخرى إلى الجنرال «اليو»، فإنها تعاني مجدداً من كل وسائله فى التعذيب، وهو يشدها من شعرها، كى يجبرها على الاعتراف بأقوال وأموال لا تعرف عنها شيئاً.

تونى موريسون



٤

لم تفز الأمريكية «تونى موريسون» وحدها بجائزة نوبل فى عام ١٩٩٢، بل فازت بهذه الجائزة كل الكاتبات الزنوجيات اللاتى أصبحن ظاهرة أدبية فى السنوات. استطعن جميعاً أن يسحبن البساط من الروائيين الآخرين الذين بدوا كأنهم قد سيطروا على الساحة، خاصة الأدباء اليهود

الذين لعبت وسائل الإعلام الغربية دوراً ملحوظاً فى صنع شهرتهم وفى حصولهم على الجوائز المحلية فى الولايات المتحدة أو فى خارجها ومنها بالطبع جائزة نوبل.

ونحن لا نسعى للتعريق بالكاتبة، لكن ما يهمنا هو إلقاء الأضواء على هذه الظاهرة المتواجدة فى ساحة الأدب العالمية والتركيز على سماتها من ناحية، ثم على صورة نموذجية منها متمثلة فى روايات «تونى موريسون» القليلة العدد من ناحية أخرى.

فى الولايات المتحدة توجد مجموعة كبيرة من الكاتبات الزنوجيات اللاتى سبقن غيرهن فى الحصول على الجوائز الأدبية، وهن ينتسبن جميعاً إلى الحركة النسائية التى تناضل مع موقف المرأة من قضايا

المجتمعات المحلية والعالمية، وأيضاً تنادى بأن على المرأة أن تعامل كمخلوق له واجباته وعليه حقوقه، وليس كشيء عليه فقط أن يمثل لأوامر الرجل دون نقاش أو جدل؛ فكانها آلة للطاعة والامتثال.

والغريب أن في قائمة هؤلاء النسوة المناضلات الكثير من الأسماء، منها «أليس ووكر» التي كانت أكثر شهرة من «توني موريسون» نفسها طوال الثمانينيات، خاصة بعد حصولها على جائزة «بوليترز» في الأدب عام ١٩٨٣ عن روايتها «اللون قرمزي»، التي حولها المخرج «ستيفن سبيلبرج» إلى فيلم سينمائي في عام ١٩٨٦.

ومن هؤلاء الكاتبات أيضاً هناك «باولي مارشال» و«مايا أنجلو»، و«مارجريت ووكر»، ثم «جلوريا تايلور» و«نوزياك شامج»، و«أودري لورد»، و«جيل جونز» وغيرها من الأسماء. وهؤلاء النساء الزنوجيات ينتمين إلى الجنوب الأمريكي، وقد أصدرن مجلة تحمل عنوان «نساء»، تولت رئاستها «توني موريسون». وفي العقد الأخير زاد عدد القاديات منبئن إلى ساحة الإبداع. وكان من المتوقع أن تتسع حركة النسوية السوداء بعد حصول «توني موريسون» على نوبل. وقد حدث ذلك بالفعل فيما بعد. ولعل «باولي مارشال» هي الأكبر سناً بين هؤلاء الكاتبات. فهي من مواليد «بروكلين» عام ١٩١٦، وقد نشرت روايتها الأولى «فتاة سوداء وحجارة داكنة» ثم «المختار» عام ١٩٦٩ و «أغنية لأرملة» عام ١٩٨٣. وفي مجموع أعمالها تتناول أحوال المرأة الزنوجية في مراحل مختلفة من حياتها: المراهقة والناضجة والعجوز. وتقول مجلة «ماجزان لىترير» في

العدد الخاص الذى أصدرته عن الأدب الأمريكى عام ١٩٩٠ : إن أعمال «باولى» تستحق أن تكون أكثر شهرة، فهى باللغة الأهمية عن الكثير من الروايات التى حققت نجاحًا.

وقد وبدنا أن نوضح نموذجًا من هذه النماذج باعتبار أننا أمام أدب مغبون على رغم جودته، وأنه لولا الجوائز العالمية ما انتهينا إليه وما كتبنا أو قرأنا عنه، ولظل فى دائرة الظل، ولعل هذا من حسنات الجوائز الأدبية التى تمتلىء أيضًا فى حيثيات منحتها بالكثير من السلبيات.

أما عن «غلويه أنطونى روفورد» المعروفة تحت اسم «تونى موريسون» والمولودة فى ولاية «أوهايو» بجنوب الولايات المتحدة فى ١٨ فبراير عام ١٩٣١ فقد كانت نسوية تمامًا فى رواياتها الست المنشورة بين عامى ١٩٧٠ و ١٩٩٢ وهى على التالى: «العيون الأشد زرقة» ١٩٧٠ ثم «صولا» عام ١٩٧٤ و«أغنية سليمان» عام ١٩٧١ و«طفل من فصيلة نبات القرنية» عام ١٩٨١ ثم «محبوبة» التى حصلت على جائزة «بوليترز» عام ١٩٨٨، ثم «جاز» فى عام ١٩٩٢.

فى كل هذه الروايات نحن دائمًا أمام نفس المرأة الزنجية من خلال ثلاثة أجيال من النساء. الجيل الأول عاش سنوات العبودية أو قارب ذلك. أما بنات الجيل الثانى فيحاولن نسيان هذا الزمن، ويصنعن عالمًا خاصًا يحاولن من خلاله صناعة هوية ثقافية واجتماعية خاصة مثل موسيقى الجاز. أما بنات الجيل الثالث فهن أكثر تحررًا وسعادة،

لكنهن تبعًا للعصر أكثر معاناة. ولذا فرغم أن الماضي بالغ القسوة فإنه أكثر رحمة من الواقع الراهن، وعليه فإن روايات الكاتبة مليئة بالحنين إلى سنوات العشرينيات.

وفي عالم «توتى موريسون» هناك دومًا العنف. هذا العنف بدرجاته المختلفة موجود في كل الأزمنة في الحرب الأهلية، وفيما بعد الحرب وأيضًا في القرن العشرين. والغريب أن أغلب نساء هذه الروايات لا يعشن في القرن العشرين، فأحداث رواية «محبوبة» مثلًا تدور في عام ١٨٧٢ أى بعد نهاية الحرب الأهلية بخمس سنوات.

والنساء في هذه الروايات يتسمن بجمال وحسية وغريزة متقدمة، ومع ذلك فإنهن يعانين من افتقاد ملحوظ لعلاقة كاملة مع طرف آخر. بدا هذا واضحًا من خلال القزمة الزنجية «بيكولا» في روايتها الأولى «العين الأشد زرقة».

وهذه القزمة التي سيتكرر ظهور مثيلة لها في روايات أخرى للكاتبة، لا تعاني فقط من أنها ضئيلة الجسم بل لأنها أيضًا زنجية. ومن أجل أن تهرب من عالمها البشع فهي تدخل في متاهات من الأحلام وترى نفسها وقد أصبحت شقراء مثل المعثلة الطفلة «شيرلى تمبل»، أو زرقاء العينين مثل الأطفال البيض، ولا تتمنى الفتاة ذلك لأن البشرة البيضاء والعيون الزرقاء والشعر الأشقر ليس بالنسبة لها سوى جواز مرور نحو عالم الحب. أى نوع من الحب، حتى الحب المحرم، فهي محرومة من كل هذه المشاعر المتبادلة.

ومثل هذه الفتاة يتكرر ظهورها مرة أخرى فى رواية «صولا»، لكنها تحمل أسماء مختلفة، فنحن مجددًا أمام قزمة تعيش فى عالم غريب عنها وبسبب لونها وحجم جسمها فإنها تنشد الصفاء. و«صولا» تبحث عن حب منشود لكن بلا جدوى. وفى وحدتها التى تعيشها فى قرية صغيرة بالجنوب الأمريكى يمكن لمثل هذه المرأة أن تكون فريسة لخصم لا ينتهى من البشر. وتروح «صولا»، من أجل أن تخرج من وحدتها القاسية، تبحث لنفسها عن دور فتمارس التمرد وتدافع عن حق المرأة الزوجية بصفة خاصة، وعن الزنوج بشكل عام.

ولأن مثل هذه المرأة أضعف من قدرها، فإن كل ما يمكنها أن تفعله هو التمرد. وتعيش «صولا» مع أمها وجدتها، وهما تعثلان جيلين مختلفين، كما أنها ترتبط بفتاتين من نفس سنّها ولونها تحاول من خلال الاتصال الحسى والوجدانى مع واحدة منهما - هاهى ذى «نيل» أن تنسى متاعبها. فالرجل الزنجى لا يميل عادة إلى امرأة من نفس لونه، كما ترى. ولذا فإن العنف هو البديل للحب فى هذا العالم، وتدور أحداث هذه الرواية فى عشرينيات القرن العشرين. وهى نفس الفترة التى دارت فيها أحداث رواية «جاز».

وترى «توى موريسون» أن عشرينيات القرن الماضى هى بمثابة العصر الذهبى للزنوج على رغم الاضطهاد العنصرى وعلى رغم المعاناة الشديدة للسود. وذلك الاضطهاد الذى عاشوه وجعلهم أكثر ثباتًا وتماسكًا. وقد

ساعدهم ذلك على إبداع فنونهم الخاصة مثل موسيقى الجاز، وذلك فى فترة كان مخرجو السينما إذا أرادوا أن يستعينوا بممثل أسود، فإنهم يدهنون وجهه بمثل أبيض بالفحم. وفى هذه الرواية هناك امرأتان من جيلين مختلفين ورجل واحد. الفتاة الصغيرة تسمى «دوركاس»، لم تتعد الثامنة عشرة من العمر، وهى تختلف عن النموذج القزمى فى رواياتها السابقة. فهى حسنة وناهدة وجذابة، لكنها فقيرة تحتاج إلى المال. لذا فهى توافق أن ترتبط عاطفياً بـرجل فى الخمسين من العمر متزوج من امرأة فى نفس سنه.

وأبطال الرواية الثلاثة من الزوج، وترى المؤلفة أن عالم الزوج، فى داخله، أكثر قسوة من عالم يجمع بين الببيض والزوج، الرجل «جون» يمنحها الهدايا ويعطيها من الأشياء ما هى محرومة منها، لكنه لا يهبها شيئاً تغشده، ألا وهو مشاعر حب حقيقية، فالفتاة تتمنى أن يحبها شاب فى مثل سنها ولو كان ذلك بشكل فجائى، هذه العلاقة سرعان ما تكتشفها زوجته «فيوليت» وتستفيد منها. فالزوج الكبير سناً «جو» لا يتردد فى قتل الفتاة عندما يكتشف أنها تفضل عليه شاباً صغيراً. ولأن الزوجة عليها ألا تفقد زوجها، فإنها تساعده فى دفنها وموارتها التراب بكل قسوة وبدون أدنى إحساس بالشفقة.

الجدير بالذكر أن هذا العالم الشديد القسوة موجود بشكل واضح فى روايات الكاتب الزنجى «ويليام بولدوين»، وهو أيضاً ملئ بالعلاقات

الجنسية غير السوية. وفي روايات بولدوين هناك الرجال الذين يملؤهم الإحباط وتنتهى أمورهم إما بالانتحار وإما بالموت. وإذا كانت بطلات تونى مويسون فى أعمالها الأولى قد اخترن الحلم الوردى بدلاً من العنف، فإن هذه السمة قد افتقدتها بطلات رواياتها الأخيرة، خاصة «محبوبة» حيث تنتهى الأمور بأن تموت «محبوبة» على يدى أمها التى تقتلها كى تخلصها من العبودية. فالأم ترى أن أمام ابنتها مصيراً واحداً من اثنين: الموت أو العبودية. ولا شك أن الموت المتحرر أفضل، ولذا فالقتل فى هذه الحالة نوع من الحب.

تقول الناقدة «كلودين رينو» - مجلة «ماجزان لىترير» (أكتوبر ١٩٩٠) - إن عالم تونى مويسون مليء بالسخرى المأساوية. فالنساء يعشن فى قسوة وعنف وسخرية قاسية. ولا يتعلق الأمر بالواقعية الخيالية لعمل يقوم على بناء وهدم الأسطورة الإنشائية، بدءاً من الفولكلور والاعتقادات. وأساليب الحياة فى التجمعات السوداء وماضى إفريقيا. بل إن الخيال هو واقع ثقافى وبذور لا تثمر إلا بعد أن تشكل الخيالات. وحسب اعتراف الكاتبة، فإن قصص مويسون نمطية تملؤها البساطة من فوق السطح، لكنها مليئة بالاعتراضات والتناقضات بين الخير والشر، بين القبح والجمال، بين الحب والموت. وتلك سمات موجودة بشكل واضح فى رواياتها. فالكاتبة ترفض الرؤى المعرفية للقراء البيض، ولسنا هنا أمام روايات إضافية عن السود. لكنها ثمار لأفكار

الكاتب ومواقفه تجاه المجتمع الأمريكى. فالعمل المكتوب يحمل وجهة نظر سوداء خاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين النساء، والصداقات، وعلاقات الأمهات بالبنات التى تأخذ شكلاً مختلفاً عن أدب يكتبه الرجل الأبيض. ولذا فإن القراء البيض عليهم أن يبذلوا جهداً فيما بينهم من أجل تفهم وجهة النظر، وذلك لأن تونى موريسون ترى أن على القارئ أن يشارك فى الحدث بكل حيادية.

فاسوفا شيمبروسكا



يمكن تسميتها بصندوق المفاجآت. ذلك حال جائزة نوبل، فهي تطلع على الناس بما ليس متوقعًا، فتخيب الآمال وتضع الدهشة على الألسنة والأقلام. ويتم دائمًا طرح السؤال المتكرر: لماذا؟! وتبدو الإجابة شديدة الغموض، فلا أحد من داخل الأكاديمية يرد وليس من إجابات سوى فقرة

صغيرة محسوبة باسم الفائز فيها حيثية بالغة الاقتضاب يليقها رجال الأكاديمية أمام ممثلي الإعلام، ثم يفلق الباب على صندوق المفاجآت لمدة عام جديد.

وقد أثار فوز الشاعرة البولندية «فاسوفا شيمبروسكا» بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٩٦ دهشة بالغة، ليس فقط لأن اسمها بدا غريبًا على ألسنة الناطقين باللغات اللاتينية، بل ولأن الدور كان يقينًا على روائى أيًا كانت أهميته. وفي صباح اليوم التالى لإعلان الجوائز أشارت وسائل الإعلام إلى أن عدد القصائد المترجمة إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية قليل للغاية، وإن كانت تتمتع بأهمية فى عالم الشعر. ولأنه ليست هناك إجابات محددة عن أسباب اختيار هذه الشاعرة أو غيرها،

فإن المهتمين بالجائزة كثيراً ما تكون أسئلتهم المطروحة حول غرابة أكاديمية ستوكهولم أكثر من الإجابات الصحيحة لهذه الأسئلة. ولا شك أن التوزيع الجغرافي الذي تحرص عليه الأكاديمية يلعب دوراً أشبه بالروليت الروسى فى التكهن والاختيار. كما أن الأكاديمية، تبدو خاصة، فى مجال الشعر وكأنها تخرج اسم الفائز من القبو لإلقاء الضوء عليه لمدة عام تقريباً، ثم يدخل بشكل تلقائى إلى مقبرة النسيان حتى لو ظل على قيد الحياة لمدة طويلة.

وفى عالم الشعر، فإننا نتساءل عن عطاء كل من التشيكى «ياروسلاف سيفيرت» الذى نالها عام ١٩٨٤ ومات فى صمت عام ١٩٨٩. ثم بين كل من النيجيرى «وول سونيكا» ١٩٨٦ والروسى «برودسكى» الذى مات عام ١٩٩٥، وانجرى ايميرش عام ٢٠٠٢، و «الترندارى ديريك والكوت» ١٩٩٢، و «شيموس هينى: الأيرلندى الذى فاز بالجائزة عام ١٩٩٥. كلهم يحملون الآن لقب حامل نوبل ولا يذكرون إلا بهذا الوسام الأدبى. ولم نر الجديد لأى منهم. وكأن دور الجائزة هو إحياء اسم مجهول لبعض الوقت، بل أين شيمبروسكا الآن من خريطة الاحتمام؟

«فاسوفا» هى المرأة التاسعة فى تاريخ الجائزة وثالث سيدة تفوز بها فى التسعينيات. أى إن عدد الرجال الذين فازوا بالجائزة حتى عام ١٩٩٦ يساوى عدد النساء، كما أنها الكاتب الرابع الذى يفوز بالجائزة فى بولندا بعد هنريك سلكفيتش ١٩٠٥ صاحب الرواية الشهيرة «كوفاديس» ثم الروائى فلاديسلاف ريمونت ١٩٨٠ ثم الشاعر شيزلاف ميلوش

١٩٨٠ الذى نال الجنسية الأمريكية والذى اكتسب شهرته من انتقاداته الخفيفة لسياسة بلاده الشيوعية سابقاً، وهى نفس النقطة التى تم التركيز فيها على الشاعرة «شيمبروسكا» عند إعلان سيرتها الحياتية. جائزة نوبل لا تزال تمنح إذن بدرجات مختلفة، كنوع من المكافأة على مواقف الأدباء الناصرة للغرب. انظر الحثثيات المعروفة عن الشعراء الأربعة الذين نالوها منذ عام ١٩٨٤ وحتى الآن، والذين ينتمون إلى أوروبا الشرقية وهم «ميلوش، سيفرت، برودسكى، وشيمبروسكا» بالإضافة إلى الروائى «إلياس كانيلى»، والغرب لا ينسى أبداً أنه كان هناك أيدلوجية ضارية تنافس وتجاهه، ولذا من المهم مناصرة من جابهوا هذه القوة.

وعلى المستوى الشعرى فإن شيمبروسكا هى موتسارت الشعر، كما جاء فى حثثيات منحتها. وهى تعبيرات تذكر لغير المتابعين لأعمال كاتب غير معروف. وذلك اختصاراً للتعريف بها، فىكفى على من يسمع هذا التعبير أن يتأكد أن مكانتها فى الشعر مثل مكانة موتسارت دون أن تعرف أين مكانه بالضبط. هل الشعر بشكل عام فى كل تاريخه أم فى بولندا؟ أم شعر القرن العشرين أم شعر الحقبة التى أبدعت فيها الشاعرة؟. وكما يلاحظ القارئ فإن تساؤلاتنا لا تزال لها أكبر مساحة من الإجابات. ودعنا نطرح كل هذه التساؤلات لننتعرف إلى موجز تاريخ الشاعرة، فهى من مواليد الثانى من يوليو ١٩٢٣ فى مدينة «كورنيك» الواقعة فى غرب بولندا، وتلقت تعليمها فى جامعة كراتوفيا العاصمة

التاريخية لجنوب البلاد، وهى المنطقة التى عاشت بها طوال حياتها. نشرت الشاعرة قصائدها الأولى عام ١٩٤٥، أى وهى فى الثانية والعشرين من عمرها، وقال النقاد إن شعرها المكتوب فى الخمسينيات ينتمى إلى الواقعية الاشتراكية وذلك فى دواوينها الأولى المنشورة عام ١٩٥٢ و«أسئلة مطروحة على الذات» عام ١٩٥٤. وقد توقفت فاسوفا عن كتابة الشعر لفترة عقب وفاة ستالين عام ١٩٥٢، وعقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى، واتجهت إلى كتابة النقد والمقالات الفلسفية، وبدأت فى الاهتمام بالميتافيزيقا، وبدأت كم هى متأثرة بدراساتها عن ديكارت، وباسكال، ومونتيني، ومالاراميه، والشاعر بول فاليرى، وريلكه، واحتتمت فى كتاباتها بابتداع مصطلحات جديدة بدأت تجد طريقها إلى لغة النقد الأدبى مثل «ضد التاريخ» و«ضد المعرفة» و«ضد الخلاعة»، ثم عادت الكاتبة للنظم عندما كتبت ملاحم صغيرة تدور أحداثها فى بلاد خيالية متحفظة. وذات رؤى طوبوية. وفى عام ١٩٥٧ واجهت الشاعرة أول معارضة من الرقيب السياسى عندما نشرت ديوانها «نداء إلى ينى». وحسب جريدة ليبراسيون، فى ٤ أكتوبر ١٩٩٦، فإن هذا الديوان قد تمت ترجمته إلى ٣٣ لغة، والعهد على الجريدة، منها العبرية والعربية والصينية واليابانية. وتقول نفس الصحيفة أن للشاعرة اثنى عشر ديواناً ومقالات فى الشعر الفرنسى القديم وأن قصائدها تنسم بالقصر والوضوح. وتبدو أحياناً كأنها قادمة من خارج التاريخ، وهى تحمل نظرة مليئة بالنفاذ تجاه العالم والبشر.

كما أن لها رؤية مزاجية ذاتية. لم يعد يوجد هناك ابن أوى الذى يمارس نقده التسلطى. وهذه العبارة تفسر رؤية الكاتبة للإبداع الذى كانت تتناوله بالنقد.

وعلى رغم ما قالته الجريدة عن اللغات التى ترجمت لها قصائد «فاسوفا»، فإنها تعود إلى أن القارئ البولندى العادى كان يمكنه أن يعد كتبها فى أرفف المكتبات، وقد علاها النسيان، ذلك قبل إعلان فوزها بقليل.

ويتفق النقاد الذين تابعوا أعمال الشاعرة إن إبداعها اتسم باستقلالية الروح وابتعادها عن ممارسة السياسة بشكل مباشر، وإن كان هذا لم يمنع أن تكون من المعارضين للشيوعية. لقد كانت عضواً فى حركة KOP، وهو اختصار لاسم منظمة المفكرين المعارضين، وهى المنظمة التى أيدت بقوة نقابة التضامن وساعدت فى ميلادها عام ١٩٨٠. وقد عبرت الشاعرة عن آرائها فى كتاباتها النثرية أكثر من أشعارها حيث كانت تكتب مقالاً شهرياً فى جريدة «نيبروسكا» التى أصدرها المثقفون المناهضون للشيوعية واليسار. وليست «نوبل» هى أول جائزة أدبية دولية تحصل عليها الكاتبة، فقد سبق أن حصلت على جائزة «جوتة» من مدينة فرانكفورت، وعلى جائزة «هرور» النمساوية. وقد كتب عنها «شيزلاف ميلوش» فى كتابه عن الشعر البولندى المعاصر أنها صاحبة رؤية فلسفية فى قصائدها دون اعتناء بالشعر الفلسفى. بلا شك فقد أبدعت أحسن ما لديها عندما حملتها غريزتها النسوية أن تبحث فى جذور وجودها.

أنا قريبة.
قريبة جداً من الحلم الذى يسكننى.
أسحب ذراعى من تحت رأسى النائم.
أحس كأننى محاطة بسنون الإبر.
فوق كل واحدة منها. تنتظر أن يحصيها.
وهناك تقف الملائكة. الرجال.
وفى قصيدتها «بورتريه لامرأة» تقول:
عليها أن تعبر نفسها لاختبارها.
وأن تغير الصنف الذى لم يتغير.
الأمر سهل، ومستحيل، وصعب، ومؤلم.
عينها زرقاوان، رماديتان.
لكنها تطمع فى عينين سوداوين مبتهجتين.
لا تملؤها الدموع بلا سبب.
تنام معه وكأنهما لأول مرة.
وكانه تفردا وأمرها الأوحده.
فتمنحه أربعة أطفال.